اجتماع الشَّمامسة والخُدَّام والخادمات والشَّعب
بكنيسة السيِّدة العذراء والبابا أثناسيوس الرَّسولي
بمدينة نصر – القاهرة
المحاضرة الأولى
الجُمعة ١٩ فبراير سنة ٢٠١٦م

سمات طقوس الصَّلوات القبطيَّة

الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

تعريف:

أودُّ في البداية أن أُعرِّف كلمة ''طقس''، وماذا تعني؟ كلمة ''طقس'' مأخوذة أصلاً من الكلمة اليونانيَّة τάξις (تاكسيس)، والتي تعني في الأساس، 'كيفيَّة ممارسة العبادة في الكنيسة، أي صلواتها، وتسابيحها، وأسرارها، وأعيادها، وفق نظام معيَّن'. أو بمعنى مختصر، تعني الكلمة: ''ترتيب العبادة الكنسيَّة وفق نظام محدَّد''.

وأوَّل إشارة وردت عن كلمة ''طقس'' بمعنى ''ترتيب''، جاءت في رسالة القدِّيس كليمندس الرُّوماني إلى أهل كورنثوس، والتي يعود زمن تدوينها إلى نهاية القرن الأوَّل الميلادي[1] فيقول:

[لنعمل كلَّ شيء بترتيب Taxei في الأوقات المحدَّدة كما أمرنا السيِّد أن نعمل ... الخ][2].

وفي حين تستخدم الكنيسة القبطيَّة كلمة ''طقس''، لتعني بها ''ترتيب''، فإنَّ الكنيسة البيزنطيَّة تستخدم لفظة يونانيَّة أُخرى هي τύπικον (تيبيكون)، وهي مشتقٌ وصفيٌ للَّفظة اليونانيَّة τύπος (تيبوس)، التي تعني في الأدب الآبائي ''المثال أو الشَّكل أو المدلول''. فتكون كلمة τύπικον (تيبيكون) – وهي الصِّفة المشتقَّة من كلمة τύπος (تيبوس) – تعني ''ما هو مطابق للمدلول''. ومن ثمَّ، يُعرَّف ''التِّيبيكون'' في الكنيسة البيزنطيَّة بأنَّه كتاب الأصول المنظِّمة لإقامة الذَّبيحة الإلهيَّة، والخِدَم الكهنوتيَّة، وصلوات الفرض (أي صلوات السَّواعي والمزامير)، وغيرها. وباختصار فهو ''كتاب تنظيم مراسيم العبادة''.

مضار الخلط بين التَّقاليد المختلفة للكنائس

تتميَّزُ كلُّ كنيسة من الكنائس، بسمات أساسيَّة تميِّز معمارها وطقوس صلواتها. فسمات المعمار وطقوس الصَّلوات في الكنيسة السِّريانيَّة، غير تلك التي للكنيسة البيزنطيَّة، غير تلك التي للكنيسة الأرمينيَّة، غير تلك التي للكنيسة الإثيوبيَّة، وهكذا.

إنَّ المعمار الكنسي وطقوس الصَّلوات لأيَّة كنيسة، هو تعبير جلي، لتعليم هذه الكنيسة، وتقليدها وشرح إيمانها. واللِّيتورجيَّة عموماً، هي المجال الأكثر وضوحاً للتَّعرُّف على تباين الطُّقوس وتنوُّعها. وهي أفضل صورة تعكس لنا هويَّة الشَّعب الذي يمارسها وسماته الخاصة.

فليتورجية القُدَّاس الإلهي بحسب التَّقليد القبطي، ممثَّلة في القُدَّاس المرقسي، وقُدَّاس القدِّيس سرابيون الذي يعود إلى منتصف القرن الرَّابع الميلادي، لا نظير لها في كافة كنائس العالم شرقاً وغرباً. إذ تنفرد بخصائص لا تعرفها الكنائس الأُخرى، مثل طقس تقديم الحَمَل الذي حفظته الكنيسة القبطيَّة طقساً سرائرياً كاملاً، يرتبط برباط وثيق مع كافة العناصر اللِّيتورجيَّة للقُدَّاس وحتى النِّهاية. وأيضاً وجود الأواشي الكثيرة في مقدِّمة صلاة الشُّكر الكُبرى. وأيضاً الاستدعاءات الكثيرة لأقنوم

1- Lampe, G.W.H., D.D., *A Patristic Greek Lexicon*, p. 1372.
2- *1 Clem.* 40,1

الرُّوح القُدُس لتكميل واستعلان القرابين.

ولكن مع تقدُّم الوسائل السَّمعيَّة والبصريَّة، أصبح من السَّهل لأيَّة كنيسة، أن تنقل – بدون دراية – ما تـــراه في أيَّـــة كنيسة أُخرى. ورويداً رويداً، تغيب هويَّة الكنيسة، وتختلط التَّقاليد، التي كان من المفترض أنها على تنوِّعها، تُثري الإيمـــان وتدعمه. هذا ما نلاحظه في الكنيسة القبطيَّة التي نقلت عن كنائس أُخرى، فتأثرت بعض الأسرار الكنسيَّة فيها، مثل ليتورجيَّة القُدَّاس الإلهي، وطقس عمل الميرون المقدَّس، وسر الزيجة المقدَّس، إلى جانب بعض الممارسات الطَّقسيَّة أيضاً مثـــل الفتـــرة الواقعة بين عيد الميلاد وعيد الختان، وآحاد شهر كيهك السَّابقة لعيد الميلاد، والتي تسرَّب الاحتفال بها إلى كلِّ شهر كيهك، وعيد القيامة أيضاً، وصلاة السَّجدة[٣]، وغيرها، ولكن أكثر ما عجبتُ له في هذا الصَّدد، أن تُحشر تراتيل حديثـــة علـــى الألحان الجنائزيَّة المهيبة ليوم الجُمعة العظيمة والتي لا نظير لها في كنائس العالم، حتى كادت أن تتوارى الهويَّة القبطيَّة التي تميِّز كنيسة مصر عن غيرها من الكنائس، لا تمييز التَّباهي، بل التَّمييز الذي يحفظ للهويَّة القبطيَّة فرادتها.

سمات طقوس الصَّلوات الكنسيَّة القبطيَّة

والآن سوف أركِّز حديثي عن سمات طقوس الصَّلوات في الكنيسة القبطيَّة، والتي تميزها عن الكنائس الأُخرى.

• يبتعد الطَّقس القبطي القديم عن المبالغة في الحركات الطَّقسيَّة، لأنه مُدرك لمضمون النَّص اللِّيتورجي وغايته. ولكـــن عندما تضعف علاقة الشَّعب بإلهه، تزداد المبالغة في إبراز المظاهر الخارجيَّة للعبادة، بطقس يكفُل أكبر تـــأثير علـــى الفكـــر والسُّلوك الشَّعبيَّين، فتهبط العبادة إلى مستوى النَّشاط الآلي، وترتبط قيمتها بفخامة المراسيم التي تؤدَّى بها.

• طقوس الصَّلوات القبطيَّة ليست تمثيليَّة أو أداة توضيحيَّة للعبادة الكنسيَّة[٤]. لأنه إن تحوَّلت الممارسات الطَّقسيَّة إلى رموز وحركات توضيحيَّة، فهي حتماً تشوِّه معنى الخدمة اللِّيتورجيَّة. لأنَّ طقوس الصَّلوات ليست مجرَّد تصـــاوير خارجيَّة بالنِّسبة إلينا، مثلما يبقى دور الممثِّل على المسرح، أمراً خارجيًّا بالنِّسبة إليه، ولكنَّها أحداثٌ حقيقيَّة بـــالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة، أي أمورٌ تحدث لنا ولحياتنا بالفعل، لتصير واسطة دخول إلى حضرة المسيح له المجد، بل مجال تحقيق هذه الحضرة وديمومتها.

• ومن هنا ندرك أنَّ طقوس الصَّلوات الكنسيَّة، هي سيفٌ ذو حدَّين، إمَّا أن تُجلي الإيمان، وتشرحه، وتأجِّج العبـــادة لتصير عبادة حيَّة بالرُّوح، أو تشوِّش عليها وتطمسها. ومن أجل ذلك، إمَّا أن تخلق طقوس الصَّلوات للمصلِّين حياة وشركة متجدِّدة دوماً مع الله في الكنيسة، أو تنفِّرهم وتضعهم تحت نير قيود طقسيَّة، لابد من تتميمها، فلا يتبقى لنا سوى ممارسات طقسيَّة خالية من الرُّوح.

• الطَّقس الكنسي مثل القانون الكنسي، الذي إذا مارسناه دون إدراك لفحواه، وفهم لأسبابه وغاياته، يؤول بنا حتمـــاً إلى صورة من صُوَر العبوديَّة والقهر. وهكذا إن اكتفينا بتأدية طقوس الصَّلوات الكنسيَّة وممارستها، بدون أن نفهم ونعي ما

٣- أوَّل من ذَكَرَ أنَّ هذه الخدمة تُقام في عشيَّة يوم البنطقستي، هو المخطوط رقم (عربي ٢٠٣) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو ''مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة'' لابن كَبَر (+١٣٢٤م)، وهو منسوخ في الفترة من ١٣٦٣-١٣٦٩م، أي في النِّصف الثَّاني من القرن الرَّابع عشر الميلادي. أمَّـــا مخطوط رقم (قبطي ١١٢) بمكتبة الفاتيكان، والمعروف باسم ''المجموع المبارَك'' بعناية ابن كَبَر والمنسوخ في بداية القرن المذكور (١٣٠٨م)، فلم يذكر ذلك.

٤- وكتطبيق عملي لذلك، يتَّضح أمامنا أنَّ ما نسمِّيه اليَوم ''تمثيل القيامة'' يخرج عن المفهوم التَّقليدي الصَّحيح لمعنى كلمة ''طقس''. لذلك كان الأقباط في القديم في يوم عيد القيامة، يمارسون هذه الجزئيَّة من الطَّقس ممارسة بسيطة عميقة في آن معاً، حينما يقـــف الأرشـــيدياكون في منتصف الكنيسة ويُعلن بصوت جهوري على ثلاث مرَّات: Χριστὸς ἀνέστη ''المسيح قام''، فيجيبه كلُّ الشَّعب: ἀληθὸς ἀνέστη ''حقًّا قام''. ثمَّ تبدأ دورة القيامة.

أمَّا الممارسة الحاليَّة، ففيها يقف الشَّعب متفرِّجاً على تمثيليَّة، وكأنه لا علاقة له بها! برغم أنَّ علاقته بما يجري أمامه هي علاقـــة كيانيَّـــة، لأنَّ المسيح له المجد، قد قام من أجله هو، ومن أجل كلِّ واحد يقبل المسيح مُخلِّصاً. ومن ثمَّ، فإنه من حق كلِّ واحد في الكنيسة أن يهتف ''بالحقيقة قام''، لأنَّ قيامة المسيح هي قيامتنا كلِّنا، لأنَّ المسيح «أقامنا معه».

نمارسه، نلفى أنفسنا ترزحُ تحت نير قيود طقسيَّة، تكبِّل حريَّتنا وانطلاقتنا نحو عبادة حيَّة بالرُّوح. فالفهم الحقيقي لطقوس الصَّلوات، ينقلنا إلى المشاركة الفعليَّة في حياة المسيح والكنيسة. وهنا يلزم جدًّا أن نفهم ما تعنيه الكنيسة وتفعله، وأن نصغي إليها ببساطة، وأن نتلقَّى منها المعنى الحقيقي لطقوسها، لا أن نُملي عليها فرضياتنا المسبقة.

وأودُّ هنا أن أوضِّح أنه لا يمكنُنا أن نفهم ما تعنيه الكنيسة من ممارسات طقسيَّة، إذا لم نكن نعي تماماً تاريخنا اللِّيتورجي الممتد في الكنيسة قرابة ألفي سنة. ومن جهة أُخرى، لا يمكننا أن نعي تاريخنا اللِّيتورجي جيِّداً، إذا لم نكن وقد وعينا تراثنا اللِّيتورجي العظيم. ولكن إن كنا حتى اليَوم لم نحصر التُّراث اللِّيتورجي للكنيسة القبطيَّة، فماذا يمكننا أن نقول؟

• الطَّقس الكنسي ليس مجرَّد مراسيم عبادة محصورة بين الكاهن والشَّمامسة، في غيبة من مشاركة شعبيَّة فاعلة، بل هو واسطة التحام شعبي بالرَّاعي في خدمة صلاة. فاللِّيتورجيَّا هي حتماً ومن منطوق اللَّفظة نفسها، هي خدمة شعبيَّة، الشَّعب فيها عنصر رئيسي. بل إنَّ الشَّعب هو الحارس الفعلي للتَّقليد والطُّقوس، لأنَّ الأفراد عابرون زائلون، أمَّا الشَّعب ككيان، فلا يموت أبداً. فإنْ حُرم الشَّعب فهم اللِّيتورجيَّة، فلن يرى فيها سوى طقوس جميلة تكتنفها السِّريَّة، دون أن يكون له أي دور حقيقي فيها.

• طقوس الصَّلوات في التَّقليد القبطي، لا تعرف الهوَّة الفاصلة بين الإكليروس والشَّعب، والتي تسربت إلينا من بعض الكنائس الشَّرقيَّة الأُخرى، والتي فيها انعزل العلمانيُّون عن المشاركة الحقيقيَّة في خدمة الذَّبيحة المقدَّسة، وكأنَّ طغمةَ الإكليروس هُم طغمة أفضل من طغمة العلمانيِّين. فصار قُدْس الأقدس أي الهيكل مخصَّصاً للإكليروس، وأمَّا صحن الكنيسة فمن نصيب الشَّعب. فانعزل الهيكل عن صحن الكنيسة بحجاب – ظهر مع الأسف في المعمار الكنسي القبطي مؤخَّراً أي في غضون القرن الخامس عشر الميلادي وما بعده – فصار يُخفي من ورائه كلَّ شيء. وكأننا نعود مرَّة أُخرى إلى الحجاب الذي هدمه المسيح بصليبه وموته، والذي كان يفصل قديماً بين القُدس وقُدس الأقداس. فتغيَّر جو الكنيسة برمَّته.

إنَّ الهيكل المفتوح على صحن الكنيسة، بدون إيقونستاس أي حامل أيقونات يفصلهما عن بعضهما، كما حدث في القرون المتأخِّرة، كان هو الشكل الطَّبيعي واليقين الإيماني للكنيسة القبطيَّة حتى إلى ما بعد القرن الثَّالث عشر الميلادي على الأقل. ذلك لأنَّ انعزال الهيكل عن صحن الكنيسة، واعتبار الهيكل هو المكان الذي لا يحق للعلمانيِّين دخوله، قد أنشأ شعوراً بالانعزاليَّة عند العلمانيِّين، كونهم مجرَّد مشاهدين لطقوس يجريها العارفون، وهم طغمة الإكليروس، فتحول الشَّعب إلى متفرجين، وفي أحسن الحالات، مشاركين في بعض مردَّات القُدَّاس الإلهي وحسب.

يقول القدِّيس يوحنا ذهبي الفم:

> [ثمَّة حالات لا يتميَّز فيها الكاهن بشيء عن الخاضعين له، وكذا الحال عند تناول الأسرار المقدَّسة الرَّهيبة. فنحن جميعاً مستحقُّون بالقدر نفسه. لقد تغيَّرت الحال عمَّا كانت عليه في العهد القديم، عندما كان للكهنة طعام، وللشَّعب آخر. وعندما لم يكن يُسمح للشَّعب بمشاطرة الكهنة طعامهم. اليَوم، الحال مختلفة. اليَوم، الجسد ذاته والكأس ذاتها ممنوحان للجميع ... اليَوم، كلُّنا نصافح بعضنا بعضاً ...][٥].

الكنيسة هي جماعة الإكليروس مع الشَّعب في حضرة المسيح مع جوقات الملائكة وأرواح القدِّيسين المكمَّلين في المجد. وكنيسةٌ بلا شعب، لا معنى لوجود الإكليروس فيها. وشعبٌ بلا إكليروس، كيف ينال أسرار الكنيسة وهباتها؟ فالتحام الاثنين معاً هو ضرورة لقيام الكنيسة. ولكن يظل كلٌّ منهما غير الآخر، أي بدون خلط أو مزج في عمليهما في خدمة المسيح لبنيان الكنيسة.

٥– العظة رقم ١٨ إلى الكورنثيين (*PG* 61, 527)

• طقس الكنيسة هو أداة الالتحام العضوي بين اللِّيتورجيَّة واللاَّهوت. فاللاَّهوت الشَّرقي خصوصاً هو لاهوت عبادي، أي لاهوت ليتورجي لا ينفصل عن نصوص صلوات الكنيسة وتسابيحها وممارساتها التَّعبديَّة اليوميَّة. فإن انعزل اللاَّهوت عن اللِّيتورجيَّة، يمسي تدريباً عقلانياً للمفكِّرين وحدهم. ولأنَّ طقس الكنيسة هو إيمانُها متجسِّداً، لذلك كانت الحقائق التي يتضمَّنها الطَّقس أساسيَّة في تشرُّب الإيمان وتغلغله في كيان الإنسان. ولأنَّ طقس الكنيسة هو إيمانها متجسِّداً، لذلك كانت الحقائق التي يتضمَّنها الطَّقس، أساسيَّة في تشرُّب الإيمان وتغلغله في كيان الإنسان. فالطَّقس الكنيس هو بمثابة مياه تجري في نهر العقيدة، ليروي شجرة الإيمان.

• ومن أجل ذلك، فإنَّ طقوس الكنيسة ما برحت تنمو تدريجياً لتخدم قضايا إيمانيَّة ألحَّت على الكنيسة بظهور هرطقات استوجبت من الكنيسة التَّصدي لها بشرح الإيمان على مستويين: الأوَّل تعليمي، والآخر تطبيقي، وظلَّ المستوى التَّطبيقي لحفظ الإيمان، هو الأكثر ديمومة وتأثيراً، عندما صارت ليتورجيَّة الكنيسة هي لاهوتها المرتَّل كلَّ يوم، وأصبحت نصوص صلواتها وتسابيحها هي نفسها قانون إيمانها.

• يفرد الطَّقس الكنسي للكلمة الإلهيَّة، ليتورجيَّة كاملة، لا تقل أهميَّة عن ليتورجيَّة السِّر ولا تنفصل عنها، فبالكلمة والسِّر يُستعلن الله فينا. فالكلمة الإلهيَّة في حدِّ ذاتها حيَّة ومحيية، وقادرة على التَّطهير حتى النَّقاوة[٦]، لذلك اعتنى الطَّقس بليتورجيَّة الكلمة كممهِّد ضروري وحتمي لليتورجيَّة السِّر. فالبشارة بالإنجيل والتي هي ميلاد في المسيح، وقبول له، وخلاص به، وقيام فيه، تكون من داخل طقس الكنيسة وتقليدها، وليس من مصدر آخر. فالإنجيل خارجاً عن الكنيسة وتقليدها، هو مدعاة للتَّشيُّع والتَّحزُّب والانقسام، ولم تكن الهرطقات التي ظهرت في الكنيسة على مدى تاريخها، سوى تعليمٌ كتابيٌ، في غيبة من الكنيسة وتقليدها.

• يحفظ التَّقليد القبطي للشمَّاس دوراً أساسياً في الصَّلوات اللِّيتورجيَّة. فكلُّ ممارسة طقسيَّة يمارسها الشَّعب، سواءٌ كانت صلاة، أو وقوف، أو ركوع، أو سجود، أو إنصات، أو انصراف، تكون دائماً بنداء من الشمَّاس موجَّه إلى الشَّعب. وهو وضعٌ فريد، تتميَّز به اللِّيتورجيَّة القبطيَّة، حيث لا غنى أبداً عن دور الشمَّاس في الخدمة اللِّيتورجيَّة فيها. لذلك فإنَّ معظم – إن لم يكن كلّ – إبروسات (مردَّات) الشمَّاس تكون باللُّغة اليونانيَّة، وهي اللُّغة التي كان يفهمها الشَّعب قديماً. فلا عجب إذاً، إذا تُرجمت مردَّات الشمَّاس إلى اللُّغة العربيَّة، أو اللُّغة الوطنيَّة التي تتمَّم بها اللِّيتورجيَّة، حتى يمكن للشَّعب أن يفهم قوَّة النِّداء الموجَّه إليه، فيمتثل له.

• الحوار اللِّيتورجي في القُدَّاس الإلهي القبطي، هو دائماً وبدون أي استثناء، حوارٌ بين الكاهن والشَّعب، وليس بين الكاهن وخوروس الشَّمامسة، فيما يقف الشَّعب متفرِّجاً. فلقد سُمِّي القُدَّاس الإلهي، باسم ''ليتورجيَّة'' لأنَّ مشاركة الشَّعب فيه، هي مشاركة أساسيَّة، فعليَّة.

ومن ثمَّ، فإنَّ كلَّ ما يختص بألحان الكنيسة، سواء ألحان البَصخة المقدَّسة أو ألحان القيامة المجيدة أو غيرها، هي من حق الشَّعب، ولا يمكن أن يكون خوروس الكنيسة بديلاً عن الشَّعب في ترتيلها[٧].

وسوف آخذ مثالاً واحداً على هذه الجزئيَّة. تقول جميع مخطوطاتنا القبطيَّة حتى أوائل القرن العشرين، أنَّ القُدَّاس الإلهي، على مدار السنة اللِّيتورجيَّة بدون استثناء، يبدأ بلحن ''أللِّي القُربان''، وأنَّ الشَّعب كلَّه يشترك في ترتيل هذا اللَّحن، لأنه لم يرد في أي مخطوط من المخطوطات التي اطلعت عليها، اختصاص ترتيل هذا اللَّحن بخوروس الشَّمامسة فحسب، كما نقرأ

٦– انظر: عبرانيِّين ١٢:٤؛ يوحنَّا ٣:١٥

٧– لقد حضرتُ قُدَّاساً في الكاتدرائيَّة المرقسيَّة القديمة بالأزبكيَّة، بعد نياحة قداسة البابا كيرلُّس السَّادس (١٩٥٩–١٩٧١م) بوقت قصير. وكان مرتِّل الكنيسة وهو الرَّجُل الوقور المتنيِّح المُعلِّم فهيم، ومن حوله خوروس الشَّمامسة، يقودون مردَّات القُدَّاس وألحانه، باشتراك شعبي كامل، من أوَّل القُدَّاس إلى نهايته. وما شدَّ انتباهي يومها، هو صوت الأطفال والفتيان والفتيات، في تآلف مع صوت الشَّعب كلِّه، صوت لا زال يرن في أذني حتى اليَوم، بمشهد لا أنساه ما حييت. هذه هي الكنيسة. فهل من عودة إلى عزِّها الرُّوحي القديم؟

اليَوم – مع الأسف – في بعض الكُتُب الكنسيَّة المطبوعة.

أريدكم أن تتأمَّلوا معي، أنَّ القُدَّاس الإلهي في أحد الأعياد السَّيديَّة الكبار مثلاً، يبدأ بترتيل هذا اللَّحن بمشاركة كل الشَّعب الحاضر في الكنيسة.

ليس هذا فحسب، بل إنه بحسب الطَّقس القبطي القديم، فإنَّ الشَّعب كلَّه، وعندما يفتح الكاهن باب الهيكل، كان يشترك كلُّه في ترديد: ''ارحمنا يا الله الآب ضابط الكُل، أيها الثَّالوث القدُّوس ارحمنا، أيها الرَّب إله القوَّات كن معنا، لأنه ليس لنا معين في شدائدنا وضيقاتنا سواك''. ثمَّ يشترك كل الشَّعب في ترديد الصَّلاة الرَّبيَّة. هكذا تبدأ الصَّلوات في الكنيسة.

بعض العيوب التي شوَّهت جمال طقسنا القبطي

في الختام، أوردُ بعضاً ممَّا شاب طقسنا القبطي الجميل من عيوب، شوَّهت جماله؛ بسبب ضعف الذَّوق الفنِّي ضعفاً بيِّناً عند المصريِّين عامة في أيامنا هذه، وهو ما انعكس بدوره على الأقباط أيضاً. إنَّ أحد أسباب الذَّوق الفني الرَّفيع عند أجدادنا من قدماء المصريِّين، مقارنة بما صار إليه هذا الذَّوق عند أبنائهم اليَوم، تجده في أسلوب عبادتهم في معابدهم القديمة، مقارنة بأسلوب عبادتنا في كنائسنا، برغم الفارق الهائل، بين كنيسة العهد الجديد، والمعبد الفرعوني القديم.

(١) الصَّوت العالي في الصَّلاة:

تدخُل الكنيسة القبطيَّة، فتسمع الصَّلوات تجري بصوت صاخب وباستخدام الميكروفونات، وكأنَّ الحاضرين في الكنيسة مصابون بالصَّمم. شيءٌ مؤسف منتشر في معظم – إن لم يكن في كلِّ – كنائسنا. ويجب أن نتأكَّد أنَّ المصلِّي في الكنيسة، إنْ كان يُصلِّي بالرُّوح فعلاً، منتبهاً لما يقوله من معاني الصَّلوات، لا يمكن أن يرفع صوته في الكنيسة بهذه الطَّريقة المزعجة[٨]. ناهيك عن الدُّف في الكنيسة الذي تحوَّل من آلة ضبط إيقاع، إلى آلة تشويش وضجيج، بسبب استخدامه كخلفيَّة صوتيَّة لأداء الألحان!

نقرأ في سفر الملوك الأوَّل (١٨:٢١-٣٩)، عن إيليَّا النَّبي، عندما سخر بأنبياء البعل، بسبب صراخهم لإلههم الذي لا يسمعهم ليقبل ذبيحتهم، فيقول لهم في الآية (٢٧): «ادعوا بصوت عال لأنه إله! لعلَّه مستغرقٌ، أو في خُلوة، أو في سفر، أو لعلَّه نائم، فينتبه. فصرخوا بصوت عال ... ولم يكن صوتٌ ولا مجيبٌ ولا مُصغ». فتقدَّم إيليَّا وقال: «استجبني يا ربُّ استجبني، ليعلم هذا الشَّعب أنك أنت الرَّب الإله ... فسقطت نارُ الرَّب وأكلت المحرَقة ...».

وفي مرَّة أُخرى، لَّما أراد الرَّبُّ أن يُكلِّم إيليَّا، قال له: «اخرُج وقف على الجبل أمام الرَّب. وإذا بالرَّب عابرٌ، وريحٌ عظيمةٌ وشديدة، شقَّت الجبال وكسَّرت الصُّخور أمام الرَّب. ولم يكن الرَّب في الرِّيح. وبعد الرِّيح زلزلة، ولم يكن الرَّب في الزَّلزلة. وبعد الزَّلزلة نارٌ، ولم يكن الرَّب في النَّار. وبعد النَّار صوتٌ منخفضٌ خفيف ... وإذا بصوت يقول له: ما لك ههنا يا إيليَّا؟» (١ملوك ١٩:١١-١٣).

وهذا هو ذاتُ الصَّوت الذي سمعه صموئيل النَّبي في هيكل الرَّب، حين ناداه الرَّب: «صموئيل، صموئيل»، ولم يكن صموئيل يعلم أنه صوت الرَّب[٩].

(٢) الإضاءة المبهرة في الكنيسة:

الإضاءة المستخدمة في كنائسنا، إضاءة مبهرة مشتِّتة للانتباه والتَّركيز. ولا تظنوا أننا بهذا ننفِّذ قول سفر الأعمال «وكانت مصابيح كثيرة في العِلِّيَّة التي كانوا مجتمعين فيها» (أعمال ٢٠:٨)، ذلك لأنَّ هذه المصابيح الكثيرة، مهما كانت كثيرة، التي لا تساوي في شدَّة استضاءتها بمقاييس اليَوم، مصباحاً واحداً قُدرة مائة وات. ولاحظوا أنَّ معظم كنائسنا في

٨- الكلام هنا ينطبق على الـ Voice volume وليس على الـ Voice tone .
٩- انظر: ١صموئيل ٣:١٠

مصر، لم تعرف المصابيح الكهربائيَّة، حتى أوائل القرن العشرين.

(٣) الكلام أثناء الصَّلاة في الكنيسة:

وأمَّا عن الكلام في الكنيسة أثناء الصَّلوات، وهي الآفة التي أصابت كنائسنا حتى اليَوم، يقول عنها الأنبا ساويرس بن المقفَّع (حوالي ٩١٥-١٠٠٠م) أُسقُف الأشمونين في القرن العاشر:

[إذا كانت الآداب، ينبغي حفظها والاعتماد عليها في مجالس النَّاس، ومحافل الشَّراب، فكم بالأحرى تليق الآداب في بيعة الله؟

الكهنة تقف في البيعة خورُسان ... (أي) صفَّان متوجِّهان إلى الشَّرق أمام الهيكل المقدَّس، من حيث لا يشتغل أحدٌ مع من هو إلى جانبه بالحديث البطَّال (بعيداً) عن الصَّلاة. ولا يتكلَّمون في أمور الاحتياج إلى ضرورات البيعة، إلاَّ رمزاً بالإشارة، في جميع الرُّتَب. أمَّا غمزٌ بالأعين، أو إشارةٌ باليد تُعمل، ما يليق في الوقت الحاضر.

ومن تعدَّا من الإكليروس، فعقوبته الانحطاط من درجته إلى ما دونها، ثلاثة أسابيع قساً كان أو شمَّاساً أو غير ذلك من الرُّتَب. بل يكونون مثابرين على الصَّلاة من غير طياشة، ولا حديث فارغ، ولا جلوس. وإن كان أحدُ الكهنة ضعيفاً، أو عاجزاً عن الوقوف اللاَّئق بالصَّلاة، فليقف في غربي البيعة، وإن شاء أن يجلس، فليجلس، لئلاَّ يكون بجلوسه حال الصَّلاة، يهزم همَّة المُصلِّي المتيقِّظ للصَّلاة][١٠].

من قوانين البابا أثناسيوس الثَّاني (٤٨٩-٤٩٦م):

• ''إذا تضارب الشَّمامسة في المذبح، أو قالوا كلام هُزء، أو لعبوا أو تحدَّثوا بحديث رديء بطَّال، يُقيموا شهراً خارجاً، ويُقيموا أسبوعاً صائمين إلى العشاء. ولا يتكلَّموا بشيء من الكلام غير النَّافع، بل يتكلَّموا بكلام الله'' (القانون ٢٧).

• '' لا يتكلَّم أحدٌ من الكهنة في موضع القربان، ولا يجلس هناك أبداً، ولا يقسموا شيئاً هناك'' (القانون ٣٢).

• ''لا يتكلَّم إكليريكوس على المذبح، خارجاً عمَّا تحتاج إليه الضَّرورة، لأنَّ هرون وُضعت له جلاجل في ثيابه لأجل خوف الملائكة. يجب أن تكون لنا المزامير على المذبح، عوضاً عن الجلاجل التي لهرون'' (القانون ٩٦).

• ''يقف الإيبودياكونون بتحفُّظ عظيم، يأمرون الشَّعب ألاَّ يتكلَّم أحد'' (القانون ٩٧).

وبحسب القوانين المصريَّة منذ أوائل القرن السَّادس الميلادي، نقرأ ما يلي:

• ''... (النِّساء) لا يتكلَّمن أبداً في الكنيسة، لأنَّ بيتَ الله ليس هو موضع كلام، بل موضع صلاة بخوف. الذي يتكلَّم في الكنيسة، فليُخرَج، ولا يتقرَّب تلك المرَّة من السَّرائر'' (قوانين هيبوليتس ٦:١٧، ٧).

• ''(الشَّمامسة) لا يتكلَّمون البتَّة من داخل السِّتارة، إلاَّ صلاة، وما يُقال لأجل حوائج الخدمة لا غير، ولا يفعلون شيئاً في ذلك الموضع'' (قوانين هيبوليتس ٣:٢٩).

• '' لا يتكلَّم أحد كثيراً، ولا يصيح، لئلا يهزأوا بكم، وتكونون عثرة للنَّاس. ويشتم أحدهم الذي دعاكم، بسبب أنكم على غير الطَّقس'' (قوانين هيبوليتس ١:٣٤).

ومن قوانين البابا خريستوذولُّوس (١٠٤٧-١٠٧٧م):

''لا يتكلَّم أحدٌ ولا يتحدَّث، في أوقات الصَّلوات والقُدَّاس، إلاَّ في أمر الدِّين والقراءة والتَّعليم والتَّفاسير، فيما يكون فيه خلاص النُّفوس. ويُنصتوا لسماع وصايا الرَّب سُبحانه، إلى أن ينقضي القُدَّاس'' (القانون الخامس).

ومن قوانين البابا كيرلُّس الثَّاني (١٠٧٨-١٠٩٢م):

١٠- انظر: الأنبا ساويرس بن المقفَّع، ترتيب الكهنوت، كتيِّب قديم لليتورجيَّة الكنيسة القبطيَّة، تحقيق يوليوس أسفلج Julius Assfalg، مطبوعات مركز الدِّراسات الشَّرقيَّة لحراسة الأراضي المقدَّسة، الفَصل السَّادس عشر بعنوان: ''في آداب الكهنة''، القاهرة ١٩٥٥م، ص ٣٩

''يجب على الكهنة والعلمانيِّين، ألاَّ ينصرفوا إلى شيء من أمور العالم في يوم الأحد، لا بيع، ولا شـــراء، ولا عمـــل يعملونه. بل يلازموا البيعة والصَّلوات وسماع الوصايا والقوانين. ولا يتكلَّم أحدٌ منهم في أوقات القُدَّاسات، إلى أن يتنـــاولوا السَّرائر المقدَّسة. فمن اعتمد ذلك، فالرَّب سُبحانه يبارك عليه'' (القانون ١١).

(٤) الإضافات الفرعيَّة الغزيرة التي طالت صلواتنا، ولاسيَّما صلوات القُدَّاس الإلهي:

إنَّ طقوس الصَّلوات الكنسيَّة عموماً، وصلوات القُدَّاس الإلهي خصوصاً، هي في أصولها القديمة والآبائيَّة، بريئة ممَّا لحق بها في القرون القليلة المتأخِّرة، بدءاً من القرن الخامس عشر الميلادي فصاعداً، من إضافات فرعية غزيرة غير أصيلة، طمســـت أو شوَّشت على المضمون الإيماني واللِّيتورجي لصلواتنا، ولاسيَّما القُدَّاس الإلهي(١١). ناهيك عن شرح لكثير مـــن الممارســـات الطَّقسيَّة في الكنيسة، يبتعد تماماً عن التَّقليد القبطي، ولاسيَّما في القُدَّاس الإلهي. فالغاية العُظمى من القُدَّاس الإلهي، هي أننـــا ندخل الكنيسة للاشتراك في القُدَّاس الإلهي، فنشكر الله الآب على الخليقة، وعلى الخلاص الذي صار لنا بذبيحة ابنه يســـوع المسيح، ثمَّ نتناول من الأسرار المقدَّسة، وننصرف بصلاة بَرَكَة ختاميَّة. أمَّا كلُّ ما لحق بصلواتنا من إضافات، لا تخدم مباشرة هذه الغاية الواحدة والأساسيَّة، هي إضافات غير محبوكة المعنى والمضمون.

والإيجاز يمكنُنا تلخيص الأمر كله، في عبارة واحدة تشرح ماهية الطَّقس القبطي، وهي:
''الطَّقس القبطي هو طقس بسيط simple قنوع satisfied رتيب systematic''.

وأخيراً، وجدتُ قولاً أقوله لنفسي قبل غيري. فيقول البابا أثناسيوس الثَّاني:
''إذا كان قسِّيس أو أُسقُف يُعلِّم أناساً، فليفتِّش ذاته قبل أن يتكلَّم، لئلا يُعثر نفوساً كثيرة بتعليمه'' (القانون ٦٢).

١١- مثل أرباع النَّاقوس التي كثرت بشكل ملحوظ في السَّنوات القليلة الماضية، والهيتنيات التي استطالت بشكل غير طبيعي في الآونة الأخيرة، ومردَّات الإبركسيس الغزيرة التي ابتعدت عن المضمون الأساسي منها. ومجمع القدِّيسين في القُدَّاس الإلهي، الذي خرج عن الغاية الأساسيَّة منه، كأوشية من أجل جميع الرَّاقدين بدون استثناء.

اجتماع الشَّمامسة والخُدَّام والخادمات والشَّعب
بكنيسة السيِّدة العذراء والبابا أثناسيوس الرَّسولي
بمدينة نصر – القاهرة
المحاضرة الثَّانية
الجُمعة ١٩ فبراير سنة ٢٠١٦م

قبِّلوا بعضُكم بعضاً بقُبلة مقدَّسة

الرَّاهب القس أثناسيوس المقاري

تمهيد

أودُّ أن أكلِّمكم عن جانب من القُدَّاس الإلهي في أصوله الأولى، لم يعد معروفاً اليَوم. وهو كيف كان يبدأ القُدَّاس؟ فبعد أن ينتهي قُدَّاس الكلمة، والذي عُرف باسم قُدَّاس الموعوظين، يخرج الموعوظون من الكنيسة بعد سماعهم القراءات وفصل الإنجيل والعظة، وبعض الأواشي التي تعقب العظة. ويبقى المؤمنون الذين حضروا قُدَّاس الكلمة، في الكنيسة. وهنا ينادي الشَّماس قائلاً: 'الأبواب، الأبواب'. فتُغلق أبواب الكنيسة، حيث لا يدخل أحدٌ ولا يخرج، لكي تبدأ صلوات القُدَّاس الإلهي، بدءاً من تقديم الحَمَل.

وهنا ينادي الشَّماس قائلاً: "قبِّلوا بعضُكم بعضاً بقُبلة مقدَّسة ..."، وهو المرد الذي لا زال يُقال في الكنيسة حتى اليَوم، ولكن في غير موضعه القديم، إذ كان موقع هذا المرد، قبل تقديم القرابين، وقبل تقديم الحَمَل. وهذا المرد الذي نسمعه حتى اليَوم، ينقسم إلى ثلاثة أقسام أساسيَّة؛

القسم الأوَّل من المرد هو: "قبِّلوا بعضكم بعضاً بقُبلة مقدَّسة". وحينئذ يقبِّل الشَّعب بعضه بعضاً، وفي أثناء ذلك، يقولون الأسبَسموس الآدام الموافق لليَوم. وهذا الأسبَسموس الآدام الذي ظل يُقال في الكنيسة حتى إلى ما بعد القرن الرَّابع عشر الميلادي، هو:

"أيها المسيح مخلِّصنا، اجعلنا أهلاً لسلامك المقدَّس في السَّموات. لكي نسبِّحك مع الشَّاروبيم والسَّارافيم صارخين قائلين: قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ، قُدُّوسٌ، أيها الرَّب الضَّابط الكُل، السَّماء والأرض مملوءتان من مجدك وكرامتك.
بشفاعات والدة الإله القدِّيسة مريم، يا ربُّ أنعم لنا بغفران خطايانا.
بشفاعة الثَّلاثة المنيرين الأطهار ميخائيل وغبريال ورافائيل، يا ربُّ أنعم لنا بغفران خطايانا.
بشفاعة الأربعة حيوانات غير المتجسِّدين، والأربعة والعشرين قسِّيساً يا ربُّ أنعم لنا بغفران خطايانا.
بشفاعة سبعة رؤساء الملائكة وجميع الطَّغمات السَّمائيَّة، يا ربُّ أنعم لنا بغفران خطايانا".

ثم يقولون لآبائنا الرُّسُل وما يختارون من الشُّهداء والقدِّيسين والبطاركة. ثم في الآخر يقولون:
"نسجد لك أيها المسيح ... الخ".

وهنا نعرف من أين أتى الأسبَسموس المختصر: "بشفاعات والدة الإله القدِّيسة مريم ...". والذي صار مرداً ثابتاً في القُدَّاس اليَوم. ولماذا نسمِّيه أسبَسموس آدام مختصر؟ وينبغي هنا أن نلاحظ مدى الرِّباط المحكم بين ما يمارسه الشَّعب من قُبلة مقدَّسة، وبين صلاته أثناء هذه القُبلة، لكي يجعلنا الرَّب أهلاً لسلامه السَّمائي بشفاعات والدة الإله القدِّيسة مريم.

ولكن حين اقتُطع المرد "بشفاعات والدة الإله ..." من سياق نصِّ الأسبَسموس السَّابق ذكره، اختَّل المعنى بين ما نمارسه، وما نقوله، إذ ما علاقة القُبلة المقدَّسة بطلب شفاعة العذراء في هذه اللَّحظة بالذَّات؟ أمَّا حين نطلب أن يجعلنا الرَّب

مستحقِّين لسلامه السَّمائي، بشفاعة العذراء أو الملائكة أو الآباء الرُّسُل أو الشُّهداء أو القدِّيسين، يكمِّل الشَّعب السؤال بطلب غفران الخطايا من جرَّاء هذه الشَّفاعة. لأنها لحظة قُبلة السَّلام والمصالحة، لغفران الخطايا، والصَّفح عن الآثام.

القسم الثَّاني من مرد الشَّماس هو: "يارِبُّ ارحم يارِبُّ ارحم يارِبُّ ارحم. نعم يارِبُّ الذي هو يسوع المسيح ابن الله، اسمعنا وارحمنا". ويقوله الشمَّاس بعد انتهاء الأسبَسموس الآدام، طبقاً للقُدَّاس الباسيلي. وأمَّا في القُدَّاس الغريغوري، فهذا القسم الثَّاني من المرد هو: "فلنقف حسناً. لنقف بتقوى. نقف باتصَّال. نقف بسلام. نقف بخوف الله ورعدة وخشوع".

وهذا القسم الثَّاني من المرد، نجده في معظم اللِّيتورجيَّات الشَّرقيَّة، مثل ليتورجيَّات أورشليم وأنطاكية والقسطنطينيَّة، ولكن التَّقليد القبطي ممثلاً في القُدَّاس المرقسي، لا يعرفه. لأنَّه في القُدَّاس المرقسي ينتقل المرد مباشرة من القسم الأوَّل إلى القسم الثَّالث.

القسم الثَّالث من المرد هو: "قدِّموا[1] على الرَّسم، قفوا بخوف، وإلى الشَّرق انظروا. ننصت". وهذا القسم الثَّالث من المرد، هو البداية الفعليَّة للأنافورا أي لصُلب قُدَّاس الإفخارستيَّا، باستثناء قُدَّاس خميس العهد الذي لا يُقال فيه عبارة: "قدِّموا على الرَّسم"، بل يكون المرد هو: "قفوا بخوف، وإلى الشَّرق انظروا. ننصت".

وهذه العبارة الأخيرة "قفوا بخوف، وإلى الشَّرق انظروا. ننصت"، هي التي تُقال فقط في كافة قُدَّاسات اللقَّانات في الكنيسة القبطيَّة، وأيضاً في قُدَّاس تكريس الميرون والغاليليون. وذلك بسبب أنه في هذه القُدَّاسات ليس هناك تقديم للقرابين، ومن ثمَّ، ليس هنا أسبَسموس آدام يُقال، ومن ثمَّ ليس هناك نداء من الشَّماس بالقبلة المقدَّسة. وأية تعليمات طقسيَّة في أي كتاب طقسي مطبوع خلافاً لذلك، هي عدم دراية بأصول طقسنا القبطي.

• أمَّا عن الاتجاه للشَّرق والذي يذكره في هذا المرد، فنقرأ تفسيراً له في التَّقليد السِّرياني، وذلك بحسب كتاب الدِّسقوليَّة أي تعاليم الرُّسُل، حيث يقول: "وبعد خروج الموعوظين ... ليكن الشَّعب قياماً معاً وينظرون إلى المشارق، ويُصلُّون إلى إله السَّماء في المشارق، ويتذكَّرون المسكن الأوَّل الذي هو الفردوس الشَّرقي، هذا الذي طُرح الإنسان الأوَّل منه، لَّما رضى قلبه بمشورة الحيَّة، ورفض وصيَّة الرَّب"[2].

أمَّا التَّقليد القبطي البديع فيشرح لنا سبب الاتجاه إلى الشَّرق في الصَّلاة، إذ تصلنا أقدم إشارة عنه، من العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠-٢١٥م)، الذي يقول:

[يُصلُّون في اتجاه الشَّرق، لأنَّ الشَّرق هو رمزٌ لميلادنا، لأنَّ منه يخرج النُّور مُشرقاً من الظُّلمة. وكذلك يوم المعرفة الحقيقيَّة، يُشرق مثل الشَّمس على المدفونين في الجهالة] (المتفرِّقات ٧:٧).

ويشرح البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م) هذا الأمر بقوله:

[إذا سأل المسيحي، لماذا نُصلِّي ناحية الشَّرق؟ فيكون الجواب بالنِّسبة له كالآتي: لأننا ننظر ناحية الفردوس، متوسِّلين إلى الله أن يردَّنا إلى وطننا الأوَّل الذي خرجنا منه.

أمَّا إذا كان السَّائل رَجُلاً وثنياً، فيكون الجواب بالنِّسبة له كالآتي: لأنَّ الله هو النُّور الحقيقي. لذلك فحينما نتَّجه ناحية مصدر النُّور المخلوق، نعبد خالق هذا النُّور.

أمَّا إذا كان السَّائل رَجُلاً يهودياً، فيكون الجواب بالنِّسبة له كالآتي: لأنَّ الرُّوح القُدُس قال بواسطة داود (مزمور ١٣٢:٧) «اسجدوا ناحية موطئ قدميه». أي ناحية ميلاد الرَّب، المكان الذي عاش فيه وصُلب وقُبر وقام

١- كلمة "بروسفارين – prospharin - προσφέρειν " تأتي هنا في صيغة المصدر، وتأتي من الفعل προσφέρω (بروسفيرو)، وقد ورد هذا الفعل في أسفار العهد الجديد ٤٨ مرَّة. تُرجم في ٤٧ مرَّة منها إلى: "يُقدِّم – يُحضر – يضع أمام to set before one – يُقرِّب شيء إلى آخر to bring one thing near another". وورد مرَّة واحدة بمعنى "يُعامل".

٢- دكتور وليم سليمان قلادة، الدسقوليَّة – تعاليم الرُّسُل، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٢٠٤

ثانية وصعد إلى السَّموات ناحية المشارق (مزمور ٣٤:٦٨ سبعينيَّة)] (*PG* XXVIII, 620).

فالشَّرق الذي تشرق منه الشَّمس، هو رمزٌ للمسيح شمس البر ونور العالم، جنباً إلى جنب مع انتظار المجيء الثَّاني للرَّب، لأنه كما أنَّ النُّور يأتي من الشَّرق ويضئ إلى أقصى الغرب، هكذا أيضاً يكون مجيء ابن الإنسان (متى ٢٧:٢٤).

المفهوم اللِّيتورجي للقُبلة المقدَّسة

القُبلة المقدَّسة، هي جزءٌ لا يتجزأ من اللِّيتورجيَّا المسيحيَّة، في كلِّ الكنيسة الجامعة شرقاً وغرباً، باستثناء الكنيسة الأنجليكانيَّة في إنجلترا. و لم يكن يُسمح لطالبي المعموديَّة الذين لم يعتمدوا بعد، بتبادل قُبلة السَّلام مع المؤمنين، لأنهم لم يصبحوا بعد أعضاء في جسد المسيح الواحد، و لم يقبلوا بعد الرُّوح القُدُس. ومن ثمَّ، فطالب المعموديَّة لا يستطيع أن يأخذ أو أن يعطي سلامَ المسيح وحُبَّه.

وقُبلة السَّلام كانت تُمارس قديماً بين اليهود كعلامة للمحبَّة والصَّداقة، كما حين قبَّل اسحق يعقوب مثلاً. وقد ورثتها الكنيسة من اليهوديَّة بطقسها، ولكن بمفهومها الجديد.

وفي أيام ربِّنا يسوع المسيح على الأرض، كانت القُبلة هي التَّمهيد الدَّمث أو الأدبي لأيِّ وليمة طقسيَّة بين اليهود، والتي كان يعني عدم ممارستها، المؤاخذة والمراجعة[٣]. وعلى ذلك، فقد احتلَّت القُبلة مكانها في العشاء الإفخارستي في الأيام الأولى في أورشليم، إن لم تكن قد مورست بالفعل في العشاء الرَّباني الأخير نفسه.

ولقد أشار إليها القدِّيس بولس الرَّسول أكثر من مرَّة، كرمز وكعلامة للشَّركة المسيحيَّة، ولكن بدون إشارة صريحة لوجودها في شركة الإفخارستيَّا، برغم أنه يصعب الشَّك في عدم استخدامها في اللِّيتورجيَّا المسيحيَّة في أيامه[٤]. فوحدة الكنيسة كجسد المسيح، قد فُهمت منذ أيام بولس الرَّسول، على أنها جوهر السِّر الإفخارستي[٥]. لذلك فكلُّ الطَّقوس شرقاً وغرباً، تعرف نداء الشمَّاس: ''قبِّلوا بعضُكم بعضاً بقُبلة مقدَّسة''.

ويولي كتاب الدِّيداخي الذي دُوِّن في أواخر القرن الأوَّل الميلادي، المصالحة، أهمِّيَّة بالغة في الاجتماع الإفخارستي. فتقول الدِّيداخي: ''عند اجتماعكم يوم الرَّب، اكسروا الخُبز واشكروا، بعد أن تكونوا اعترفتم بخطاياكم، لكي تكون ذبيحتكم طاهرة. لا يجتمع معكم كلُّ من له منازعة مع صاحبه، حتى يتصالحا، لئلا تتنجَّس ذبيحتكم'' (ديداخي ١٤:١، ٢).

كما يشهد لها القدِّيس يوستينوس الشَّهيد (١٠٠ - ١٦٥م) بوضوح، وذلك في عديد من الرَّسائل التي يختمها بقوله: Ασπάσαθτε ὑμᾶς ἐν φιλήματι ἁγιῴ أي ''قبِّلوا بعضكم بعضاً بقُبلة مقدَّسة''. وأشار أيضاً إلى أنَّ القُبلة اللِّيتورجيَّة، هي بمثابة إعداد للإفخارستيَّا، وخاتمة للصَّلوات السَّابقة لتقديس الأسرار. وهي من أقدم الإشارات في الكنيسة لوجود القُبلة المقدَّسة في هذا الوقت المبكِّر من تاريخ الكنيسة.

وفي القرن الثَّاني الميلادي، وما بعده، بلغت القُبلة اللِّيتورجيَّة أقصى درجات شيوعها كعلامة مسيحيَّة، وكتمهيد حتمي ومباشر للإفخارستيَّا، وكرمز ''لوحدة الرُّوح برباط السَّلام''، والذي هو - بحسب القدِّيس بولس الرَّسول - الأساس، لحقيقة أنَّ الكنيسة هي «جسد المسيح الواحد» (أفسس ٣:٤، ٤). فالقُبلة المقدَّسة هي إيذان بالدُّخول المباشر إلى الأنافورا.

ولدينا منذ القرن الثَّالث الميلادي، نصوصاً ليتورجيَّة من الشَّرق، يصرُخ فيها الشمَّاس وهو واقف إلى جوار كُرسي

٣- انظر: لوقا ٤٥:٧

٤- انظر: رومية ٦:١٦ ؛ ١كورثوس ٢٠:١٦ ؛ ٢كورنثوس ١٢:١٣

Cf. Gregory Dix, Dom, *The Shape of The Liturgy*, London, 1986, p. 107.

٥- انظر: ١كورنثوس ١٧:١٠

الأُسقُف، بينما يتبادل الشَّعب القُبلة المقدَّسة، فيقول: ''لا يدع أحدٌ بينه وبين أخيه ملامة، ولا غشاً، ولا رياء''[٦]. وهو نداء بمثابة تحذير أخير – حتى ولو في اللَّحظات الأخيرة – فيتقدَّم الأُسقُف بالمصالحة بينهما. ولقد تطوَّر هذا التَّحذير الذي ينادي به الشمَّاس تطوُّراً كبيراً، وصار كمرد طويل[٧].

ومن أجل ذلك، نجد أنَّ الدِّسقوليَّة السِّريانيَّة تأمر الأُسقُف بأن تُعقد مجالس المصالحة بين المتخاصمين ثاني أيام الأسبوع (أي يوم الاثنين)، ليكون هناك متَّسعٌ من الوقت للصُّلح بينهم، حتى يوم السَّبت التَّالي، أي قبل قُدَّاس يوم الأحد. وتضيف الدِّسقوليَّة بالقول: ''إذا جلستم في مجلس الحُكم، ويكون معكم الخصمان اللَّذان يأخذان وجه الحُكم، فلا تسمُّوهما إخوة، حتى يتسالما مع بعضهما''[٨].

إنَّ وضع قُبلة السَّلام قبل الأنافورا عموماً، هو تطبيق لوصيَّة الرَّب في الإنجيل المقدَّس: «فإن قدَّمتَ قربانك إلى المذبح، وهناك تذكَّرتَ أنَّ لأخيك شيئاً عليك، فاترك هناك قُربانك قُدَّام المذبح، واذهب أوَّلاً اصطلح مع أخيك. وحينئذ تعال وقدِّم قُربانك» (متى ٥:٢٣، ٢٤). ولقد كان لما أورده القدِّيس متى البشير، تأثيرٌ على وضع القُبلة المقدَّسة في كلِّ الطُّقوس القديمة شرقاً وغرباً، لتُصبح قبل تقديم القرابين Oblatio أي تقديم الحَمَل، كما ذكرت غير مرَّة.

وتعقيباً على قول الرَّب السَّابق ذكره، تعلِّم الدِّسقوليَّة فتقول: ''... لأنَّ قُربان الله، هو صلاة كلِّ واحد وشكره. فإنْ كان بينك وبين أخيك ملامة، أو لأخيك عليك، فإنَّ صلواتك لا تُسمع قُدَّام الله، ولا يَقبَل إليه شُكرك، لأجل الغضب الذي بينك وبين أخيك''[٩].

إنَّ تقديس الأسرار يبدأ ويكتمل على أساس الحُب الذي تأسَّست عليه الإفخارستيَّا، وانسكب من أجله الدَّم الإلهي. فالإفخارستيَّا خَطِرة بدون الحُب، إذ تصبح دينونة مخيفة، وقبول عقاب وموت، بدل غفران وحياة أبديَّة[١٠].

الإفخارستيَّا هي حُب المسيح المسكوب فينا، ولولا حبُّنا بعضُنا لبعض، ما جرؤنا أن نقترب منها. فهي سرُّ شُكر، من داخل سرِّ الحُب. وهي قادرة أن تسكِّن الآب في قلوبنا، وفي مركز حياتنا، وتصالحنا مع الرُّوح القُدُس، فنصير بها، رعيَّة من القدِّيسين، ومن أهل بيت الله.

يقول الأب ثيؤدور: ''بهذه القُبلة، يصنعون نوعاً من الوحدة والحُب فيما بينهم. فإنه لا يليق بمن يمثِّلون جسداً واحداً في الكنيسة، أن يكره أحدُهُم أخاً له في الإيمان''.

وهكذا كان على كلِّ شخصَين اختلفا على أيِّ أمر، أن يتصالحا ويغفرا لبعضهما البعض قبل الاشتراك في الاجتماع الإفخارستي. وفي الواقع، إنَّ هذه القُبلة المقدَّسة، لم تكن إيذاناً ببدء القُدَّاس الإلهي، بقدر ما كانت شرطاً يجعل من الممكن الشُّروع في هذا العمل السَّرائري المقدَّس. إذ لا يمكننا أن نقيم ذكرى المسيح، والاتحاد بجسده ودمه، والتَّوق إلى ملكوته الإلهي، وحياة الدَّهر الآتي، ما لم نلبس حُلة المحبَّة هذه. فارتداء هذه الحُلَّة، هو شرطٌ أساسي للمشاركة في الاحتفال الإفخارستي[١١].

قُبلة السَّلام في الطُّقوس المختلفة

يتفاوت نداء الشَّماس بالقُبلة المقدَّسة، بحسب ترجمته إلى اللُّغة المحليَّة لكلِّ كنيسة. فيأتي نداء الشمَّاس في بعض الكنائس هكذا: ''أعطوا السَّلام أحدُكم الآخر بقُبلة مقدَّسة''. أو ''فلنعط السَّلام أحدنا الآخر بقُبلة مقدَّسة''. ولكن انفردت كنيسة

٦– الدُّكتور وليم سليمان قلادة، الدِّسقوليَّة، مرجع سابق، الباب العاشر، ص ٢٠٥

7- Gregory Dix, Dom, *op. cit.*, p. 106, 107.

٨– الدُّكتور وليم سليمان قلادة، الدِّسقوليَّة، مرجع سابق، الباب الثَّامن، ص ١٨٢

٩– نفس المرجع، الباب الثَّامن، ص ١٨٩

١٠– ١كورنثوس ١١:٢٧ – ٣٠

١١– الأب ألكسندر شميمان، الإفخارستيَّا سرُّ الملكوت، ترجمة سامر عبُّود، منشورات النُّور، ١٩٩٣م ص ٢٠٨

القُسطنطينيَّة بصيغة: ''فلنُحب بعضُنا بعضاً – ἀγαπησωμεν ἀλλήλους ''. ولا ريب في أنَّ قول الشمَّاس هنا ''فلنُحب''، يعني ''فلنعانق''، وذلك طبقاً للسِّريانيَّة[١٢].

ويشير القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم في رسالته إلى ديمتريوس Demetrius لنداء الشمَّاس: ''فلنعانق بعضُنا بعضاً – Ασπαζόμενοι ἀλλήλους''. وهذا النِّداء موجود بنصِّه في ليتورجيَّة مار يعقوب أخي الرَّب السِّريانيَّة.

وكما صاحبت القُبلة، ترديد الشَّعب: ''أيها المسيح مخلِّصنا، اجعلنا أهلاً لسلامك المقدَّس في السَّموات ...''، في الطَّقس القبطي، ففي الطَّقس البيزنطي أيضاً، يقول الواحد للآخر: ''المسيح في وسطنا''، فيجيبه الآخر: ''الآن، ويبقى حالاً بيننا''.

ونعرف من كتابات القدِّيس يوستينوس الشَّهيد (١٠٠-١٦٥م)، والقدِّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م)، والقدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م)، والقدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م)، أنَّ المؤمنين يتبادلون القُبلة المقدَّسة بالمعانقة[١٣].

وهو ما تذكره المراسيم الرَّسوليَّة (٨:١١:٧-٩) فنقرأ: ''يقول الشمَّاس: 'ننصت'. وليحيِّي[١٤] الأُسقُف الكنيسة ويقول: 'سلام الله مع جميعكم'. وليُجب الشَّعب: 'ومع روحك'. ويقول الشمَّاس للجميع: 'قبِّلوا[١٥] بعضكم بعضاً بقُبلة مقدَّسة'[١٦]. وليُقبِّل الإكليروس الأُسقُف. أمَّا العلمانيُّون، فالرِّجال يُقبِّلون الرِّجال، والنِّساء يُقبِّلن النِّساء''.

فيقول القدِّيس كيرلُّس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م):

[لا تظُن أنَّ هذه القُبلة كتلك التي اعتاد الأصدقاء على ممارستها في الاجتماعات. هي ليست من هذا الصِّنف. إنما هذه توِّحد النُّفوس، وتزيل كلَّ حقد ... هي علامة اتحاد النُّفوس معاً].

ويقول عنها القدِّيس أغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠م):

[هي علامة السَّلام، فما تظهره الشِّفاه من الخارج، يوجد في القلب من الدَّاخل].

ويقول عنها القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م):

[عندما يُقبِّل كلُّ واحد منَّا فمَ الآخر، فنحن نُقبِّل مدخل الهيكل. لذلك ليت لا أحدٌ منَّا يفعل هذا بضمير غاش ... لأنَّ القُبلة مقدَّسة، كقول بولس الرَّسول: «سلِّموا بعضكم على بعض بقُبلة مقدَّسة» (١كورنثوس ١٦:٢٠)] (تعليم المعموديَّات ١١:٣٤).

وجاء في الدِّسقوليَّة السِّريانيَّة، أنَّ الشمَّاس في لحظة التَّقبيل، ينادي بصوت عال: ''إن كان لأحد شيء على آخر ...''. وكأنه يقدِّم تحذيراً أخيراً، حتى متى وُجد شيء بين اثنَين، يقوم الأُسقُف بمصالحتهما.

إنَّ الموضع الطَّبيعي لهذه القُبلة المقدَّسة، هو في بداية القُدَّاس، وقبل تقديم القرابين، لأنَّ الله لا يقبل تقدماتنا إلاَّ من داخل المحبَّة. ولكن مع مرور السِّنين، تغيَّرت الغاية من هذا النِّداء، بعد أن تغيَّر موقعه القديم.

١٢- الفعل ''يحب''، و''يعانق'' واحد في السِّريانيَّة. وفي اصطلاح العامة في بعض بلاد الصَّعيد بمصر، وبعض بلاد ما بين النَّهرين في الشَّام يُقال: ''حَبَّ يده''، أي ''قبَّل يده''.

١٣- إغناطيوس أفرآم الثَّاني، البطريرك السِّرياني الأنطاكي، المباحث الجليَّة في اللِّيترجيَّات الشَّرقيَّة والغربيَّة، دير الشُّرفة، ١٩٣٤م، ص ٢٤٢، ٢٤٣

١٤- ἀσπάζομαι = (يحتضن – يعانق – يقبّل – يحيّي – يرحِّب). وهو نفس أصل الفعل الذي يُستخدم في صلوات اللِّيتورجيَّا، أي: ''قبِّلوا'' ἀσπαζέσθε . وينبغي أن أشيرُ هنا، إلى أنَّ صيغة الأمر التي يرد فيها هذا الفعل ἀσπαζέσθε هي في زمن الماضي البسيط، ليفيد أنَّ التَّقبيل هو لمرَّة واحدة فقط.

١٥- ἀσπαζέσθε وهو نفس الأمر الذي ورد في البند السَّابق مباشرة.

١٦- ١كورنثوس ١٦:٢٠ ؛ رومية ١٦:١٦

ففي كنيسة روما، انتقل النِّداء بالقُبلة المقدَّسة، إلى موضع متأخِّر من القُدَّاس الإلهي، ليكون قبل التَّناول مباشرة[١٧]. وهناك شهادات تؤكِّد وجود هذه الممارسة في طقس كنيسة روما منذ سنة ٤١٦م[١٨]. وهذه الخاصيَّة الرُّومانيَّة الفريدة التي لا علاقة لها بالطُّقوس الشَّرقيَّة، قد انتقلت إلى طقس كنيسة ميلان أيضاً.

وفي كنيسة القُسطنطينيَّة، أي في الطَّقس البيزنطي، وُضع قانون الإيمان ليكون فاصلاً بين النِّداء بالقبلة المقدَّسة، وبين الأنافورا، بالإضافة إلى أنَّ القُبلة المقدَّسة، قد انحصرت بين الإكليروس فحسب، وفي داخل الهيكل[١٩]، ففقد النِّداء معناه.

أمَّا الأصل القديم للقُبلة، فلم يكن هكذا، ذلك لأنَّ القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم (٣٤٧- ٤٠٧م) يقول في إحدى عظاته:
[عندما كان يحين وقت تبادلنا السَّلام، كان الكُل يُقبِّل الكُل، فيحيِّي رجال الإكليروس الأُسقُف، والعلمانيُّون (الرِّجال) الرِّجال، والنِّساء النِّساء].

ولقد أبقى الأقباط والأرمن والنَّساطرة على هذه الممارسة، التي لم تتأثَّر بالتَّرتيب البيزنطي الذي جاء في وقت متأخِّر. وهي اليَوم في هذه الكنائس، أقرب ما تكون إلى الشَّكل القديم لهذا الطَّقس في ذلك الوقت.

القُبلة المقدَّسة في الطَّقس القبطي القديم

كان العلاَّمة كليمندس الإسكندري (١٥٠- ٢١٥م) قد انتقد القُبلة في الكنيسة. وانتقاده لها كان انتقاداً لمعناها الجسدي، أي قُبلة فم لفم. فيقول في ذلك:
[... ولكن يوجد آخرون لا عمل لهم إلاَّ أن يجعلوا الكنيسة يتردَّد في أصدائها صوت القُبلة، مع أنها ينبغي أن تُفهم على مستوى سرّي. فالرُّسل يدعون القُبلة ''مقدَّسة'']
ولكن لم يكن انتقاده لها آنئذ، باعثاً على إيقافها أو تعديلها، إذ ظلَّت عُنصراً أساسياً في اللِّيتورجيَّة.

ولقد احتفظ الطَّقس القبطي، وحتى اليَوم، بالمعنى الكامل للقُبلة اللِّيتورجيَّة، بأنها قُبلة الفم للفم، ذلك لأنَّ الألحان التي نُرتِّلها عند ممارسة طقس القُبلة المقدَّسة، لازالت تحمل اسمها اليوناني ἀσπασμός (أسبَسموس)، والتي تعني ''ترحيب - تحيَّة - قُبلة - سلام (salutation)''.

تقول قوانين الرُّسُل في تقليد الكنيسة القبطيَّة:
''إذا فرغوا من الصَّلاة، يعطون السَّلام لبعضهم بعضاً بأفواههم''(٣٤:١).

''لتقف النِّساء - المؤمنات أو الموعوظات - في موضع في الكنيسة يُصلِّين وحدهن. فإذا فرغن من الصَّلاة، فلا تسلِّم الموعوظات على بعضهن البعض، لأنَّ قُبلتهن ليست بعد طاهرة. وليُقبِّل المؤمنون بعضهم بعضاً؛ الرِّجال يُقبِّلون الرِّجال، والنِّساء يُقبِّلن النِّساء، ولا يُقبِّل الرِّجال النِّساء'' (٢:٣١:١-٤).

''إذا كمَّل الأُسقُف كلَّ الصَّلوات التي يجب أن يقولها لأجل المرضى، وبقيَّة الصَّلوات، فليقُل لهم الشمَّاس: قبِّلوا بعضكم بعضاً بقُبلة طاهرة. وليُقبِّل الكهنة الأُسقُف، أمَّا العلمانيُّون، فالرِّجال يُقبِّلون الرِّجال، والنِّساء يُقبِّلن النِّساء'' (١٠:٥٢:١)[٢٠].

القُبلة المقدَّسة في الطَّقس القبطي الحالي

نعرف من كتاب 'الجوهرة النَّفيسة في شرح علوم الكنيسة' لابن سباع (القرن الثَّالث عشر)، أنَّ القُبلة، قد انتقلت في

١٧- هذا هو السَّبب الذي دفع بعض الباحثين في اللِّيتورجيَّات إلى الظَّن بأنَّ نداء الشمَّاس في الطَّقس القبطي ''تقدَّموا على الرَّسم ...''، والذي يعقب نداءه ''قبِّلوا بعضكم بعضاً''، أنه يعني التَّقدُّم للتَّناول من الأسرار المقدَّسة.

18- Baumstark, A., *Comparative Liturgy*, English Edition By F.L. Cross, London, 1958. p. 136.

١٩- الأب ألكسندر شيمان، مرجع سابق، ص ٢٦

٢٠- انظر: المراسيم الرسوليَّة ٨:١١:٩

الكنيسة القبطيَّة من قبلة من الفم للفم، إلى قبلة من الفم للرَّقبة، وذلك على الأقل في كنائس صعيد مصر. فيقــول في الباب (٧٤): ''يُقبِّل جميع الشَّعب بعضهم بعضاً بقُبلة مقدَّسة طاهرة سالمة من الغش. وصفة القُبلة أن يُقبِّل الواحد الآخر مــن النَّاحية اليُمنى من عنقه، ويعوضه الآخر بقُبلة مثلها في عنقه''[٢١].

وعند ابن كَبَر (+١٣٢٤م) أيضاً: ''وإذا قرئ الأسبَسموس، يقول الشمَّاس قبِّلوا بعضــكم بعضــاً بقُبلــة مقدَّســة[٢٢] Ⲁⲥⲡⲁⲍⲉⲥⲑⲉ ⲁⲗⲗⲏⲗⲟⲩⲥ ϧⲉⲛ ⲫⲓⲗⲏⲙⲁ ⲉⲑⲟⲩⲁⲃ فيُقبِّل الرِّجال، الرِّجال. والنِّساء، النِّساء. ويركع بعضــهم لــبعض، ويرتِّل المرتِّلون بما يليق بذلك اليَوم ...''[٢٣].

وعند البابا غُبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م): ''ثمَّ يتلو (الكاهن) أوشيَّة الصُّلح إلى آخرهــا. وعنــد قــول الشــمَّاس Ⲁⲥⲡⲁⲍⲉⲥⲑⲉ يُقبِّل الكهنة بعضهم بعضاً، والشَّمامسة بعضهم بعضاً[٢٤]. وهذا هو مثال للصُّلح الــذي جعلــه بــين السَّمائيِّين والأرضيِّين. فإنَّ الرَّسول يقول إنما جاء يُصلح بين السَّمائيِّين والأرضيِّين. فمن كان في نفسه من أخيه أمرٌ، إن كان ضروري أو غير ضروري، ففي هذا الوقت يتركه له، ويُقبِّله، ولا يكون تقبيله له بغش ودغل ومكر، فيصير مثل يهوذا الذي قبَّل السيِّد بغش ودغل ومكر. ثمَّ إنهم إذا صفحوا وقبَّلوا بعضهم بعضاً بمحبَّة ونيَّة خالصة، فيصيروا مشتركين مع الملائكة في التَّقديس، الذي هو قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ الرَّب الصَّباؤوت، السَّماء والأرض مملوءة من مجدك المقدَّس''[٢٥].

لقد انتقل النِّداء بالقبلة المقدَّسة، من قبل بدء تقديم الحَمَل، لتكون قبل بدء قُدَّاس الإفخارستيَّا، وبعد رفع الإبروسفارين من على الأسرار المقدَّسة. والسبب هو أنه في البداية كان قُدَّاس الكلمة يسبق تقديم الحَمَل، وكان النِّداء بالقبلة المقدَّسة يأتي في بداية تقديم الحَمَل، أي في نهاية قُدَّاس الكلمة، بحسب الطَّقس القديم. ولكن بانتقال قُدَّاس الكلمة ليكون تالياً لطقس تقديم الحَمَل، وليس سابقاً عليه، فقد بقى بالنداء بالقبلة المقدَّسة في نهاية قُدَّاس الكلمة، وكان المفروض أنه مرد لا علاقة له بقداس الكلمة بل بتقديم الحَمَل.

وبرغم ذلك، وبرغم الموقع الحالي للنِّداء بالقبلة المقدَّسة، فإنها صورةٌ رائعة لجسد الرَّب المحيي، وقد كُفِّن بالأكفان، ووُضــع في القبر المقدَّس أي المذبح، ودُحرج عليه حجرٌ عظيم أي الإبروسفارين، ووُضعت عليه الأختام أي اللِّفافة المثلَّثة التي لم تشر إليها المصادر القديمة. ثمَّ يتركه الجميع، ويذهبون أي يخرجون من الهيكل.

ويا لعمق المعنى الذي يشرحه الطَّقس حينما تكون القُبلة المقدَّسة هي موعد رفع الحجر عن القبر وإعلان القيامة. فالمحبَّة

٢١- يوحنا بن أبي زكريا بن سباع، كتاب الجوهرة النَّفيسة في علوم الكنيسة، حقَّقه ونقله إلى اللاَّتينيَّة، الأب فيكتور منصور مســتريح الفرنسيســي، مؤلَّفات المركز الفرنسيسكاني للدِّراسات الشَّرقيَّة المسيحيَّة، القاهرة، ١٩٦٦م ص ٢١٧

٢٢- لاحظ هنا جيِّداً، أن ابن كَبَر قد فقد المفهوم اللِّيتورجي للقبلة المقدَّسة، فجعل الأسبَسموس سابقاً على النِّداء بالقبلة المقدَّسة، وليس تالياً لها.

٢٣- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كَبَر، البَاب ١٧

وهذا هو التَّفسير الذي عُرف في الكنيسة عن معنى رفع الإبروسفارين، وهو ما يذكره أيضاً كتاب ''سرّ الثَّالوث في خدمة الكهنوت'' لمعلِّمي البيعــة في العُصور الوُسطى.

انظر: كتاب سرّ الثَّالوث في خدمة الكهنوت، مرجع سابق، ص ٢١

٢٤- وهنا أيضاً أغفل البابا غُبريال الخامس (١٤٠٩-١٤٢٧م) تقبيل الشَّعب لبعضه بعضاً.

٢٥- البابا غُبريال الخامس، التَّرتيب الطَّقسي، مرجع سابق، ص ٧٧

وأمَّا كتاب ''سرّ الثَّالوث في خدمة الكهنوت'' لأحد معلِّمي البيعة في القرون الوُسطى، والذي يعود إلى القرن الخامس عشر الميلادي، فيقول بتدقيق أكثر: ''الكاهن يُقبِّل الكاهن، والشمَّاس يُقبِّل الشمَّاس، والشَّعب مثله يُقبِّلون بعضهم بعضاً، فهذا هو مثال الصُّلح الذي جعله الرَّب بين السَّمائيِّين والأرضيِّين، ونقض العتيقة بالحديثة. ومن كان في نفسه من أخيه أمرٌ، ففي هذا الوَقت يتركه ويُقبِّله، ولا يكون قبوله له بغش كمثــل يهوذا الذي قبَّل السيِّد بغش ودغل ومكر. وليشتركوا مع الملائكة في التَّقديس الذي هو قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ ربُّ الصَّباؤوت، السَّماء والأرض مملوءتان من مجدك المقدَّس''.

انظر: كتاب سرّ الثَّالوث في خدمة الكهنوت، مرجع سابق، ص ٢٢

والأمر المدهش حقًّا أنَّ ما يذكره البابا غُبريال الخامس هنا في كتابه ''التَّرتيب الطَّقسي''، هو نفس ما يذكره كتاب ''سرّ الثَّالوث في خدمــة الكهنوت''، ولكن مع بعض الاختلافات البسيطة، ممَّا يتَّضح معه، أنَّ كلاهما ينقلان من مصدر آخر أقدم منهما.

هي الله، وهي السَّماء، وهي القيامة والحياة. ومع إعلان المحبَّة تُستعلن الكنيسة.

شكل القُبلة المقدَّسة اليَوم، في الطُّقوس المختلفة

في الطَّقس القبطي اليَوم، يتصافح الشَّعب مع بعضه البعض بكلتا اليدين، وكذلك الإكليروس أصحاب الرُّتبة الكنسيَّة الواحدة مع بعضهم البعض. أمَّا في الطَّقس السِّرياني فيأخذ الشمَّاس يدي الكاهن بين يديه، ثمَّ يمسح وجهه بيديه. وفي الطَّقس الأرمني ينحني كلٌّ واحد لرفيقه. وفي الطَّقس البيزنطي، حين يخدم القُدَّاس أكثر من كاهن، يُقبِّل كلٌّ منهم الآخر. فيقول المتقدِّم: ''المسيح معنا، وفيما بيننا''، فيجيبه الأصغر: ''كان وكائن ويكون''. وإذا كان رئيس الكهنة هو الذي يخدم الذَّبيحة المقدَّسة، فيُقبِّلون القرابين، ثمَّ يده، ثمَّ بعضهم بعضاً بالتَّتابع. أمَّا طقس القُبلة في كنيسة روما، فهو طقس بلا صلاة أو ألحان مصاحبة له.

ويمكن أن نعزو فتور طقس القُبلة اليَوم، إلى ازدياد عدد المؤمنين الذين باتوا يجتمعون في كنائس ضخمة لا يعرفون بعضهم بعضاً. فأنا اليَوم لا أعرف من يقف بجانبي في الكنيسة. وكأنه لا أحد بالنِّسبة لي. من هنا نفهم لماذا كان يُطلب من المؤمنين في أوَّل عهد المسيحيَّة الرَّد على الدَّعوة بالقُبلة المقدَّسة بقُبلة حقيقيَّة، أي بفعل، وليس بكلمة. وما يزيد من قابليَّة اندثار مثل هذا الطَّقس، هو النَّظرة إليه كمجرَّد حركة شكليَّة.

إنَّ المحبَّة هي جوهر قداسة الكنيسة، لأنها فاضت في قلوبنا بالرُّوح القُدُس المعطى لنا. وهي جوهر وحدة الكنيسة[٢٦]. فما هي الكنيسة إن لم تكن شركة محبَّة؟ إنَّ الكنيسة هي ''محبَّة تجسَّدت في جماعة''[٢٧]. المحبَّة بين الجماعة، هي التي تؤهِّل الكنيسة لأن تُعلن المسيح ومحبَّته للعالم، ولأنْ تشهد له في أرجاء المسكونة.

لا يمكن للكنيسة أن تكون جسراً تعبُر عليه محبَّة المسيح إلى العالم، ما لم تجد الكنيسة كمالها في المحبَّة. فنحن عندما نذهب إلى الكنيسة، نذهب سعياً وراء المحبَّة، المحبَّة التي لا نقتبلها إلاَّ في وحدتنا.

٢٦ـ انظر أفسس ٤:١٦ الأب ألكسندر شميمان، مرجع سابق، ص ٢٠٦

٢٧ـ الأب ألكسندر شميمان، مرجع سابق، ص ٢٠٣